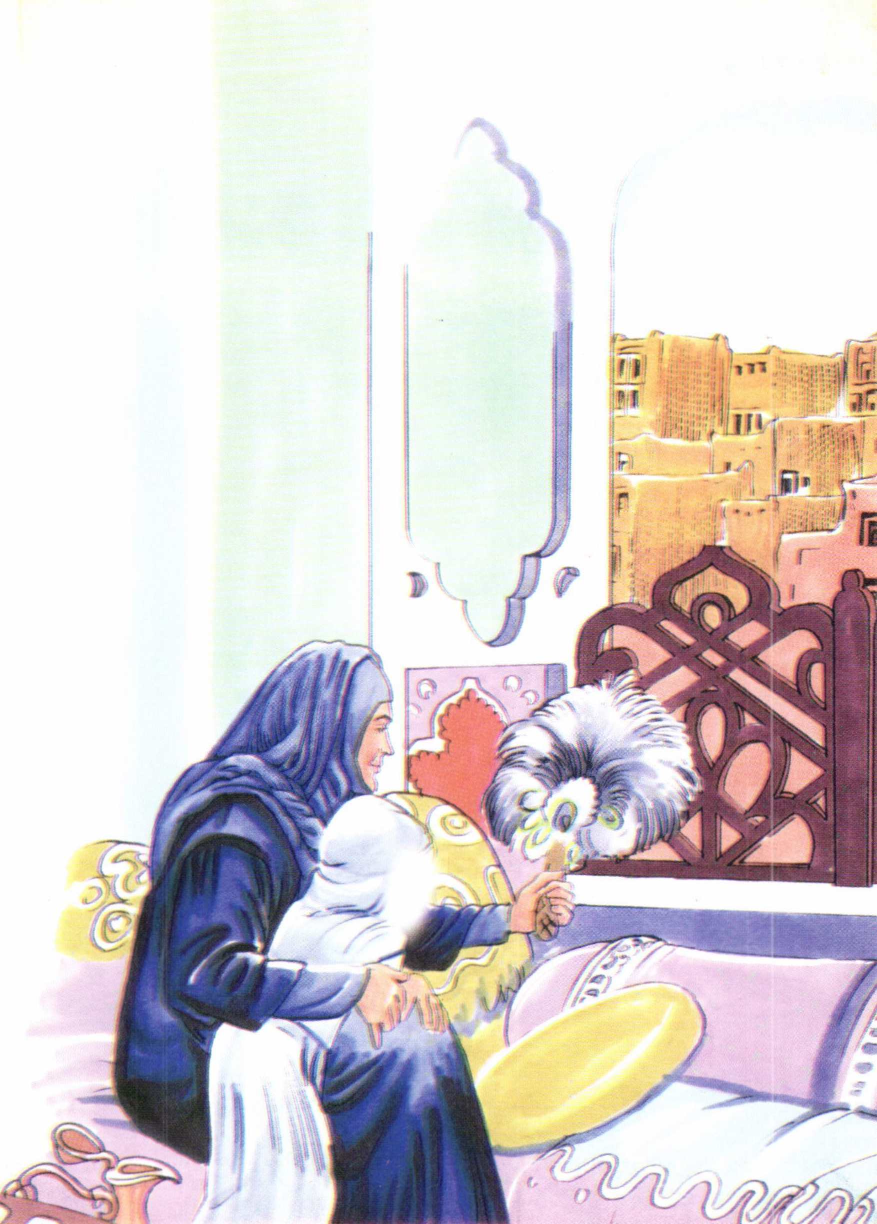
سلسلة السيرة النبوية الشريفة

مُحمّد (ص)

ما قبل الدعوة

الأعلمي الصغير



مَرَّتِ الأَيّامُ سَريعَةً، وَمُحَمَّدٌ (ص)، في حِضْنِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ طِفْلٌ صَغيرٌ مُحاطٌ بالعَطْفِ وَالْحَنانِ، بَعْدَ أَنْ عَزَمَ الْجَدُّ عَلى أَنْ يُعَوِّضَهُ عَمّا حَرَمَهُ الْقَدَرُ مِنْهُ. وَلكِنَّ مَرارَةَ الْيُتْمِ الَّتي عَرَفَها مُحَمَّدٌ (ص) ظَلَّتْ تُلاحِقُ طُفولَتَهُ، فَغادَرَ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ الدُّنْيا بَعْدَ أَنْ بَلَغَ عُمْرُ النَّبِيِّ (ص) ثَمانِيَ سَنَواتٍ، وَلَمْ يَنْسَ حينَ أَحَسَّ بِدُنُوِّ الأَجَلِ مِنْهُ أَنْ يوصِيَ أَبْناءَهُ جَميعاً بِذلِكَ الْيَتيمِ الصَّغيرِ الَّذي سَيَكونُ لَهُ في الْحَياةِ شَأْنٌ عَظيمٌ.

وَاخْتارَ مِنْ بَيْنِ أَبْنائِهِ ابْنَهُ أَبا طالِبٍ لِيَكْفَلَ مُحَمَّداً (ص)، وَيَرْعاهُ. وَإِلى بَيْتِ أَبي طالِبٍ دَخَلَ مُحَمَّدٌ (ص) وَهُوَ في عَهْدِ الطُّفولَةِ لِيَجِدَ لَهُ أُمّاً تُحاوِلُ جاهِدَةً أَنْ تَغْمُرَهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالْحَنانِ. إِنَّها فاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ زَوْجُ عَمِّهِ أَبي طالِبٍ الَّتي راحَ يَدْعوها (ص) بِأُمّي، وَلَمْ يَكُنْ أَبو طالِبٍ بِأَقَلَّ مِنْها رَأْفَةً وَعَطْفاً، فَالْوَصِيَّةُ الَّتي أَوْصاهُ بِها سَيِّدُ بَني هاشِمٍ غالِيَةٌ جِدّاً عَلى قَلْبِهِ، بِالإِضافَةِ إِلى ما أَوْدَعَهُ اللهُ تَعالى في قَلْبِهِ مِنْ حُبٍّ لِمُحَمَّدٍ (ص)، جَعَلَهُ يُؤْثِرُهُ عَلى أَوْلادِهِ في كَثيرٍ مِنَ الْمَواقِفِ!



لَمْ يُفارقِ الْخَوْفُ عَلى مُحَمَّدٍ إحْساسَ أَبي طالِبٍ يَوْماً.

إنَّهُ لأَمانَةُ غالِيَةٌ لا يُمْكِنُ لِهُ أَنْ يُغمِضَ عَيْنَهُ عَنْها لَحْظَةً واحِدَةً، لِذا راحَ يَصْحَبُهُ إلى كُلِّ مَكانٍ يُغادِرُ إلَيْهِ. وَمِنْ تِلْكَ الأَمْكِنَةِ رِحْلَةُ أَبي طالِبٍ التِّجارِيَّةُ الَّتي الْتَقى فيها الرّاهِبَ بَحيرا في الطَّريقِ إلى الشّامِ، عِنْدَ مِنْطَقَةٍ اسْمُها (بُصْرى) هِيَ مَوْجودَةٌ في جَنوبِ سوريَّةَ الْيَوْمَ.

بَحيرا هَذا راهِبٌ مُؤْمِنٌ وَرِثَ مِنْ عِلْمِ الأَنْبياءِ السّابِقينَ الْكَثيرَ، ذلِكَ الرَّجُلُ تَعَرَّفَ إلى مُحَمَّدٍ (ص) خِلالَ تِلْكَ الرِّحْلَةِ مَعَ أَنَّهُ كانَ فَتىً غَريراً، وَعَرَفَ عَلاماتِ النُّبُوَّةِ فيهِ، فَأَخْبَرَ عَمَّهُ أَبا طالِبٍ بِها، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّ شَمْسَ النُّبُوَّةِ سَتَبْزُغُ حينَ يَأْذَنُ اللهُ عَلى يَدِ هذا الْفَتى، وَحَذَّرَهُ - كَما حَذَّرَهُ مِنْ قَبْلُ سَيْفُ بْنُ ذي يَزَنٍ - مِنْ مَكائِدِ الْيَهودِ وَنَواياهُمْ.

وَازْدادَ يَقينُ أَبي طالِبٍ، وَازْدادَ خَوْفُهُ عَلى ابْنِ أَخيهِ، فَاسْتَمَرَّ يَرْعاهُ وَيَحْميهِ حَتّى شَبَّ مُحَمَّدٌ (ص) وَصارَ رَجُلاً قَوِيَّ الْعودِ.

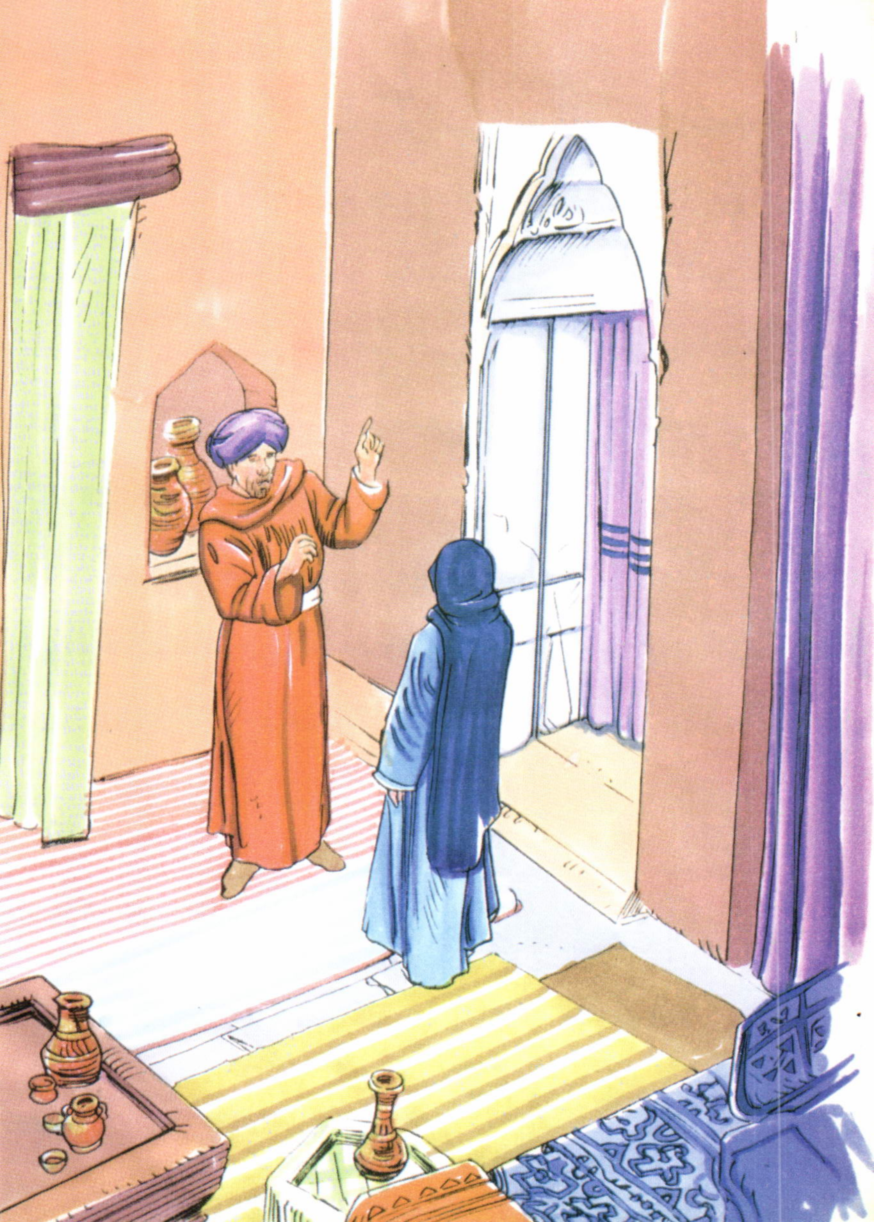




فِي تِلْكَ الأَيّامِ كانَتْ سَيِّدَةٌ مِنْ شَريفاتِ أَهْلِ مَكَّةَ اسْمُها خَديجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، تَتَمَتَّعُ بِثَرْوَةٍ مادِيَّةٍ كَبيرَةٍ. جَمَعَتْ إِلَيْها جَمالاً وَشَرَفاً وَعَفافاً وَفَضائِلَ جَعَلَتْ مِنْهَا سَيِّدَةَ مَكَّةَ الأولى!

لَقَدْ سَبَقَ لِهذِهِ السَّيِّدَةِ الزَّواجُ، وَلَمْ يُحالِفْها التَّوفيقُ في ذلِكَ، فَقَرَّرَتْ أَنْ تَنْأَى عَنِ الرِّجالِ، وَها هِيَ عَلى أَبْوابِ الأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِها تَرْفُضُ كُلَّ عُروضِ الزَّواجِ، رَغْمَ كَثْرَةِ الرّاغِبينَ بِها وَبِصِفاتِها الرّائِعَةِ، وَتَتَفَرَّغُ لإِدارَةِ ثَرْوَتِها وَتِجارَتِها. فَكانَتْ تَسْتَوْرِدُ الْبَضائِعَ مِنَ الشّامِ وَتُصَدِّرُها إِلَيْها مُسْتَأْجِرَةً ذَوي الْخِبْرَةِ، وَكُلَّ مَنْ عُرِفَ بِالْقُوَّةِ وَالأَمانَةِ كَيْ يُسافِرَ بِتِجارَتِها مُقابِلَ أَجْرٍ مُعَيَّنٍ أَوْ نِسْبَةٍ مِنَ الأَرْباحِ.

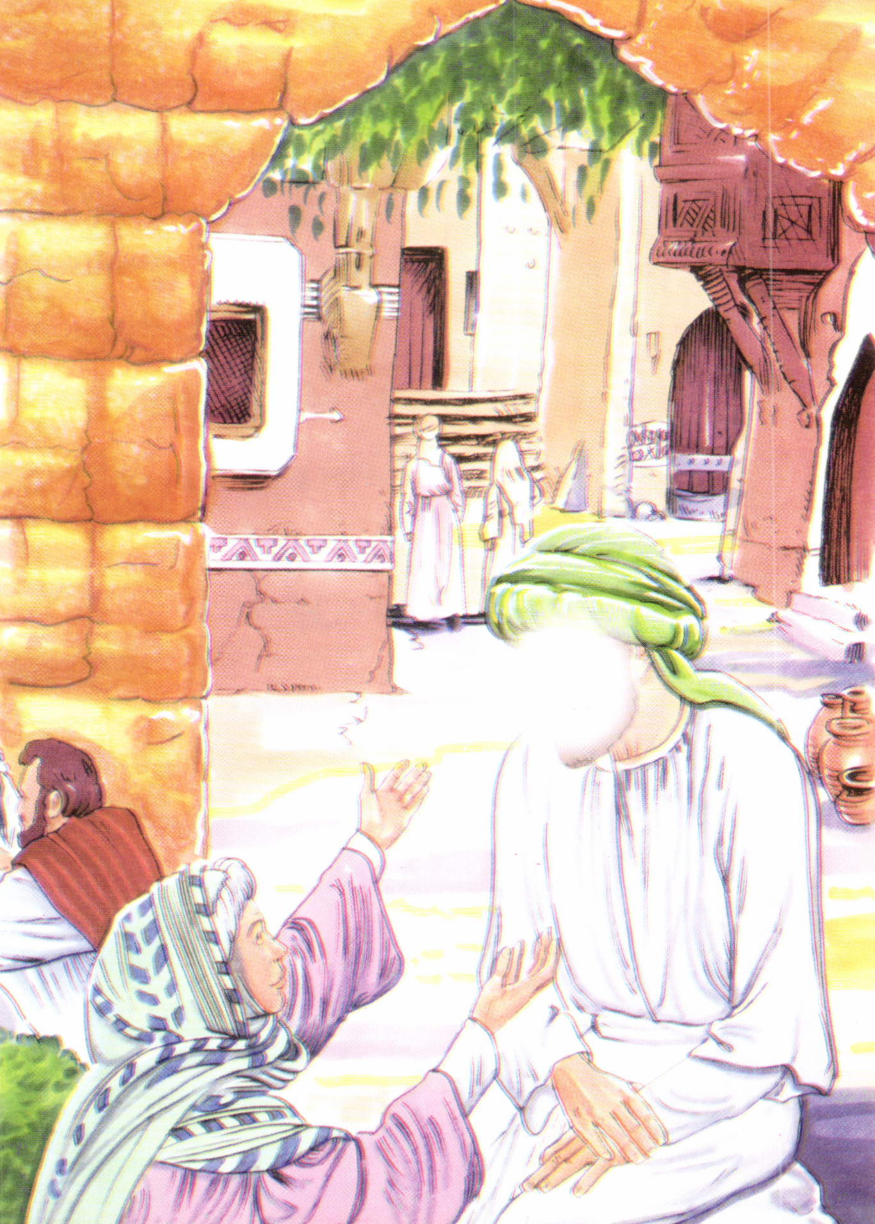
سَمِعَتْ خَديجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ عَنْ مُحَمَّدٍ (ص) وَصِدْقِهِ وَأَمانَتِهِ وَما اشْتَهَرَ عَنْهُ مِنْ صِفاتِ الشَّرَفِ وَالشَّهامَةِ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَخْرُجَ مُتاجِراً بِأَمْوالِها، فارِضَةً لَهُ ضِعْفَ ما كانَتْ تَدْفَعُهُ لِغَيْرِهِ.



هذا الْعَرْضُ بارَكَهُ أبو طالِبٍ عَمُّ النَّبيِّ (ص)، وَشَجَّعَهُ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ مُحَمَّدٌ (ص) بتِجارَةِ خَديجَةَ، وَمَعَهُ غُلامُها مَيْسَرَةُ الَّذي تَمَلَّكَتْهُ الدَّهْشَةُ وَالعَجَبُ مِنْ أَحْداثٍ كَثيرَةٍ لَمْ يَجِدْ لَها تَفْسيراً، رافَقَتْ رِحْلَةَ مُحَمَّدٍ (ص) إلى الشّام، كانَ مِنْ ضِمْنِها تِلْكَ الْغَيْمَةُ الَّتي فَرَشَتْ ظِلَّها على خُطُواتِ مُحَمَّدٍ(ص) وَأَظَلَّتْهُ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ طوالَ الرِّحْلَةِ، ذَهاباً وَإياباً.

لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الأَحْداثُ وَحْدَها ما أَثارَ دَهْشَةَ مَيْسَرَةَ، بَلْ إنَّ الأَرْباحَ غَيْرَ الْمُتَوَقَّعَةِ الَّتي عادَتِ الْقافِلَةُ بِها، وَالَّتي فاقَتْ كُلَّ الآمالِ أَضافَتْ حَيْرَةً وَاسْتِغْراباً، بالإِضافَةِ إِلى أَخْلاقِ مُحَمَّدٍ(ص) وَسَجاياهُ الَّتي عَجَّلَتْ بِالْبَيْعِ وَأَكْثَرَتْ مِنَ الرِّبْحِ وَضاعَفَتْ مِنْ نَجاحِ التِّجارَةِ.

كُلُّ هذِهِ الأَحْداثِ رَواها مَيْسَرَةُ لِسَيِّدَتِهِ خَديجَةَ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مَعَ مُحَمَّدٍ (ص) مِنَ الرِّحْلَةِ، وَحينَ جاءَها مُحَمَّدٌ (ص) في الْيَوْمِ التّالي لِيُؤَدِّيَ إِلَيْها الأَمانَةَ اسْتَقْبَلَتْهُ بِفَرَحٍ وَسُرورٍ، وَشَعَرَتْ لِلْمَرَّةِ الأُولى مُنْذُ قَرَّرَتِ الْعُزوفَ عَنِ الزَّواجِ بِقَلْبِها

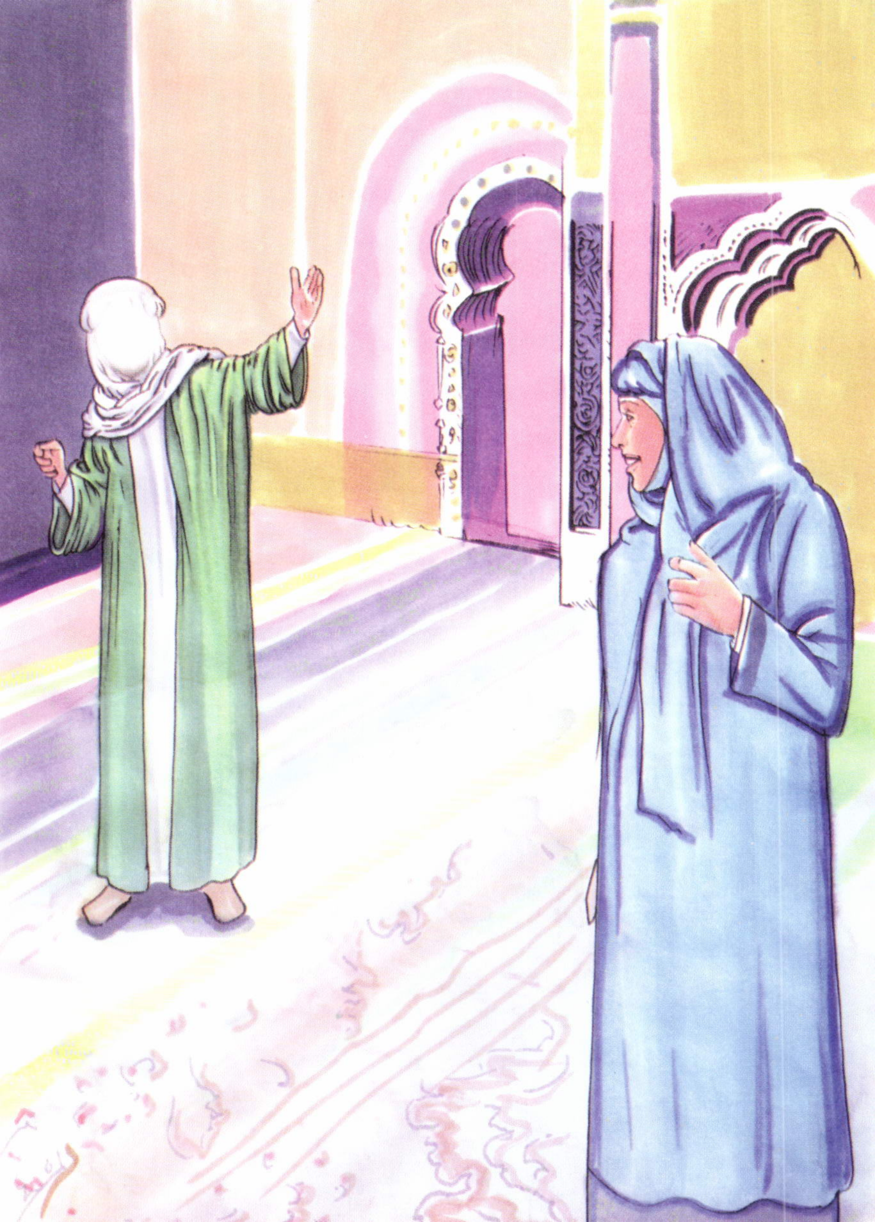


يَخْفُقُ حامِلاً شُعوراً جَديداً ما عَرَفَتْهُ مِنْ قَبْلُ.

إِنَّهُ مُحَمَّدٌ (ص) ذو الأَوْصافِ الْكامِلَةِ، سَيِّدُ السّاداتِ، الصّادِقُ الأَمينُ، فَكَيْفَ تَصْنَعُ خَديجَةُ وَقَدْ باتَتْ تَتَمَنّاهُ مِنْ كُلِّ قَلْبِها وَروحِها؟ إِنَّ في خَديجَةَ مِنَ الصِّفاتِ ما يَجْعَلُ ذلِكَ الأَمَلَ سَهْلَ الْمَنالِ، أَلَيْسَتْ أَفْضَلَ نِساءِ مَكَّةَ؟ وَأَعْلاهُنَّ شَرَفاً وَفَضائِلَ؟

وَصارَحَتْ خَديجَةُ صَديقَتَها نَفيسَةَ بِنْتَ مُنْبِهٍ بِرَغْبَتِها تِلْكَ، فَأَسْرَعَتْ نَفيسَةُ تَسْأَلُ مُحَمَّداً (ص) عَمَّا يَمْنَعُهُ مِنَ الزَّواجِ، فَأَخْبَرَها بِأَنَّ قِلَّةَ الْمالِ هِيَ وَحْدَها السَّبَبُ في التَّأْخيرِ، فَأَشارَتْ نَفيسَةُ إِلى خَديجَةَ وَما تَمْلِكُهُ مِنْ جَمالٍ وَمالٍ وَشَرَفٍ وَكَفاءَةٍ.

وَلَمْ يَتَرَدَّدِ النَّبِيُّ (ص) في الْقَبولِ، فَلَرُبَّما كانَتْ لَدَيْهِ مَشاعِرُ خاصَّةٌ نَحْوَ خَديجَةَ لَمْ يُفْصِحْ عَنْها مِنْ قَبْلُ بِسَبَبِ قِلَّةِ الْمالِ، وَقَدْ شَجَّعَتْهُ نَفيسَةُ الآنَ عَلى الإِقْدامِ.

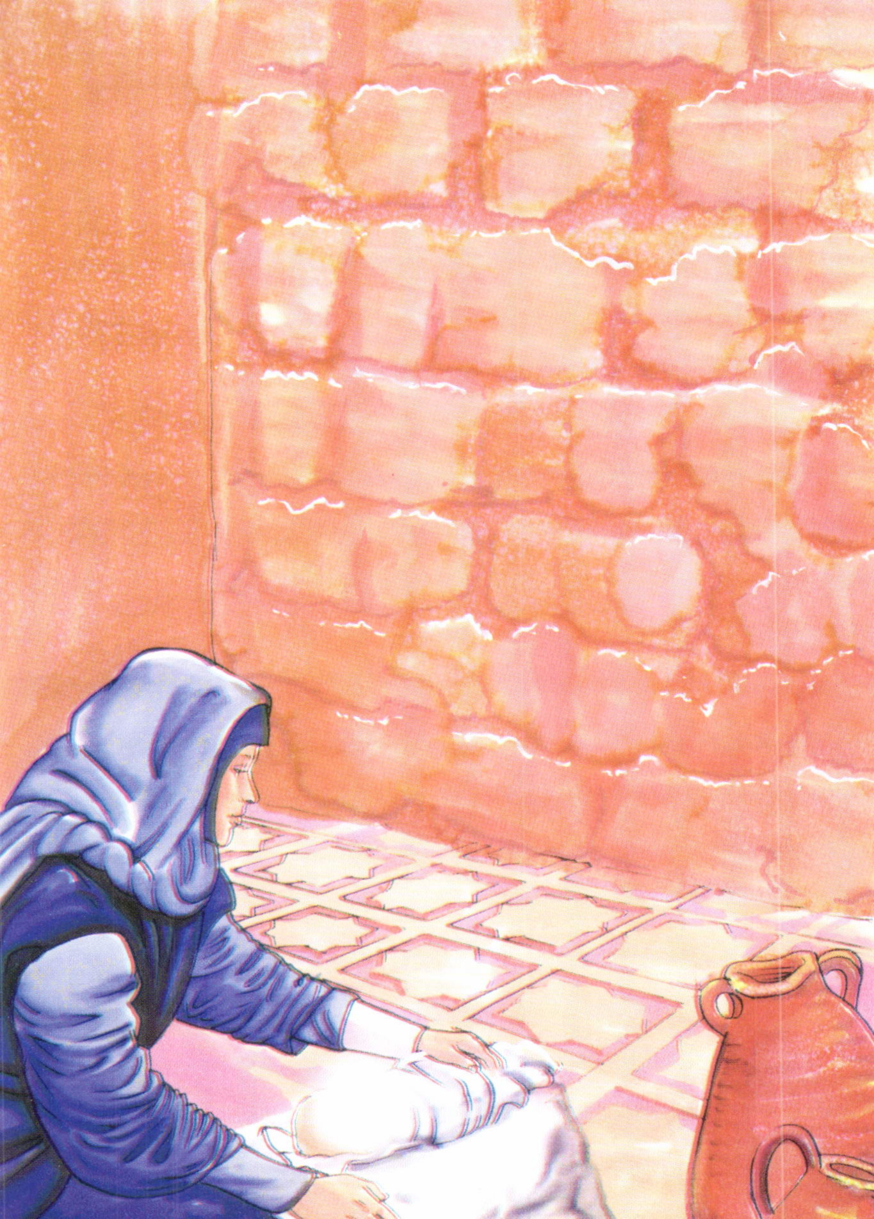


وما كانَ أَكْبَرَ سَعادَةَ الْعَمِّ أَبي طالِبٍ، وَهُوَ يُحثُّ خُطاهُ بِوَفْدٍ مِنْ إِخْوَتِهِ وَوُجَهاءِ بَني هاشِمٍ نَحْوَ بَيْتِ خَديجَةَ، لِيَطْلُبَ يَدَها لابْنِ أَخيهِ مُحَمَّدٍ مِنْ عَمِّها عَمْرو بْنِ أَسَدٍ، لِوَفاةِ أَبيها.

وَتَمَّ الزَّواجُ، وَضَمَّ بَيْتٌ واحِدٌ خَديجَةَ وَمُحَمَّداً (ص)، في ذَلِكَ الْبَيْتِ عاشَتْ خَديجَةُ سَعادَتَها الَّتي حَلُمَتْ بِها مَعَ رَجُلٍ يَشْهَدُ التّاريخُ كُلُّهُ أَنْ لا رَجُلَ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ في صِفَةٍ مِنْ صِفاتِ الشَّرَفِ وَالفَضيلَةِ وَالسِّيادَةِ، ذلِكَ الَّذي لَمْ يَعْثُرْ أَعْداؤُهُ عَبْرَ التّاريخِ عَلى صِفَةٍ تَخْدُشُ نَقاءَهُ وَتَفَوُّقَهُ!

وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ زَواجِ خَديجَةَ مِنْ مُحَمَّدٍ (ص) أَهَمَّ عِنْدَها مِنْ أَنْ تُسْعِدَهُ وَتُريحَهُ وَتُشاطِرَهُ هُمومَهُ وَآلامَهُ، بَلْ إِنَّها نَصَرَتْهُ بِقَلْبِها وَعَقْلِها وَعَمَلِها، وَوَضَعَتْ كُلَّ ما تَمْلِكُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

لَمْ تَكُنْ خَديجَةُ وَحْدَها إِلى جانِبِ رَسولِ اللهِ (ص) في بَدْءِ دَعْوَتِهِ، صَحيحٌ أَنَّها أولى النِّساءِ اللَّواتي آمَنَّ بِهِ، وَلكِنَّ قَلْباً آخَرَ، وَروحــاً أُخْرى وُلِدَتْ قَبْلَ أَنْ يُبَلِّغَ جِبْريلُ (ع)



النَّبِيَّ (ص) بِالرِّسالَةِ، وَبَعْدَ وِلادَةِ النَّبِيِّ (ص) بِخَمْسٍ وَعِشْرينَ سَنَةً.

كانَ ذلِكَ الْقَلْبُ قَلْبَ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ (ع) وَكانَتْ تِلْكَ الرّوحُ روحَهُ.

وَحينَ جاءَتْ فاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ زَوْجَةُ أَبي طالِبٍ إِلى زَوْجِها لِتُبَشِّرَهُ يَوْمَ وُلِدَ مُحَمَّدٌ (ص)، قالَ لَها: «إِصْبِري سَبْتاً، أُبَشِّرْكِ بِمِثْلِهِ إِلاّ النُّبُوَّةَ» وَالسَّبْتُ هُوَ فَتْرَةٌ زَمَنِيَّةٌ تُعادِلُ ثَلاثينَ عاماً أَوْ خَمْسَةً وَعِشْرينَ.

إِنَّ وِلادَةَ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ (ع) في الْكَعْبَةِ الشَّريفَةِ الَّتي لَمْ يولَدْ في حَرَمِها سِواهُ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ، لَشاهِدٌ عَلى مَكانَةٍ رَفيعَةٍ، وَقُدْسِيَّةٍ خاصَّةٍ مَنَحَهُ إِيّاها اللهُ، تَبِعَ هذِهِ الْقُدْسِيَّةَ يَوْمَ الْوِلادَةِ قُدْسِيَّةٌ خِلالَ النَّشْأَةِ؛ إِذْ قُدِّرَ لِعَلِيٍّ بَعْدَ بُلوغِهِ ما بَيْنَ السّادِسَةِ وَالثّامِنَةِ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلى بَيْتِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (ص)، بَعْدَ أَنْ أَصابَ الْقَحْطُ قُرَيْشاً، وَقَلَّ فيها الرِّزْقُ، فَأَحَبَّ مُحَمَّدٌ (ص)، وَعَمّاه الْحَمْزَةُ وَالْعَبّاسُ أَنْ يَحْمِلوا عَنْ أَبي طالِبٍ بَعْضاً مِنْ



مَشَقَّاتِ الْحَياةِ وَتَبعاتِها. فَأَخَذَ الْعَبَّاسُ طالِباً، وَحَمْزَةُ جَعْفَراً، أَمَّا النَّبِيُّ (ص) فَاخْتَارَ مَنِ اخْتارَهُ لَهُ اللهُ كَما قالَ، وَانْتَقَلَ بِعَلِيٍّ (ع) إِلى بَيْتِهِ، لِيودِعَ في روحِهِ مِنْ طُهْرِهِ طاقاتٍ أَهَّلَتْ عَلِيّاً(ع) لِيَكونَ بِحَقٍّ مِنْ مُحَمَّدٍ (ص) بِمَنْزِلَةِ هارونَ مِنْ موسى، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَبِيّاً مِنْ بَعْدِ الرَّسولِ (ص). إِنَّ مَنْ قَرَأَ أَحاديثَ مُحَمَّدٍ (ص)، وَتَتَبَّعَ أَخْبارَهُ، وَتَعَلَّمَ مِنْ مَواقِفِهِ لإِنْسانٌ حَكيمٌ عاقِلٌ يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَتَمَيَّزَ عَلى سِواهُ مِنَ الْمُؤْمِنينَ، فَما بالُ الَّذي عاشَ في بَيْتِهِ، يَتْبَعُهُ اتِّباعَ الْفَصيلِ أُمَّهُ، وَيُقَلِّدُهُ في كُلِّ حَرَكَةٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، يُنْكِرُ ما يُنْكِرُهُ، وَيَقْبَلُ ما يَقْبَلُهُ، وَيُصَلّي مَعَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ الصَّلاةَ أَحَدٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ!

أَمَّا خَديجَةُ (ع) فَقَدْ أَنْجَبَتْ لِمُحَمَّدٍ (ص) سِتَّةَ أَوْلادٍ مِنْ بَناتٍ وَمِنْ بَنينَ، هُمُ الْقاسِمُ وَزَيْنَبُ وَرُقَيَّةُ وَأُمُّ كُلْثوم وَعَبْدُ اللهِ وَفاطِمَةُ، وَقَدْ تُوُفّيَ أَبْناءُ وَبَناتُ مُحَمَّدٍ (ص) جَميعاً أَثْناءَ حَياتِهِ ما عَدا فاطِمَةَ (ع) الَّتي تُوُفِّيَتْ بَعْدَ وَفاتِهِ بِخَمْسَةٍ وَسَبْعينَ يَوْماً.



أَمَّا عَلِيٌّ (ع) فَكانَ بَعْدَ انْتِقالِهِ إِلى بَيْتِ مُحَمَّدٍ (ص) كَواحِدٍ مِنْ أَبْناءِ خَديجَةَ (ع)، وَفي بَيْتِها عَرَفا الإِسْلامَ الصّادِقَ الْعَميقَ، وَتَلَقَّيا الْعِلْمَ الإِلَهِيَّ مِنْ يَنْبوعِهِ الْمُقَدَّسِ النَّقِيِّ.

في ذلِكَ الْعَصْرِ الَّذي عَبَدَ فيهِ النّاسُ الأَصْنامَ، كانَ مُحَمَّدٌ (ص) وَزَوْجَتُهُ خَديجَةُ وَابْنُ عَمِّهِ عَلِيٌّ وَحْدَهُمْ يَعْرِفُونَ الإِسْلامَ وَيَدينونَ بِهِ!

لَمْ يَكُنْ جِبْريلُ (ع) قَدْ هَبَطَ عَلى الرَّسولِ (ص) بِالْوَحْيِ بَعْدُ، وَلكِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ كانَ في قُلوبِهِمْ مِنْ قَبْلِ الرِّسالَةِ، وَكانوا يَرَوْنَهُ في كُلِّ ما يُحيطُ بِهِمْ مِنْ أَرْضٍ وَمِنْ فَضاءٍ وَمِنْ حَيٍّ أَوْ جَمادٍ.

أَمَّا دينُ الْمَسيحِيَّةِ الَّذي كانَ يَدينُ بِهِ الْكَثيرونَ، فَقَدْ رَأى فيهِ مُحَمَّدٌ (ص) ما يَحْتاجُ إِلى الْكَثيرِ مِنَ التَّأَمُّلِ، في حينِ رَأى في عِبادَةِ قَوْمِهِ لِلأَصْنامِ ضَلالاً ما بَعْدَهُ ضَلالٌ.



وَلَمْ يَجِدِ النَّبِيُّ (ص) ما يُخَفِّفُ عَنْهُ أَعْباءَ وَهُمومَ رَفْضَهِ لأَفْكارِ الْقَوْمِ وَمُعْتَقَداتِهِمْ إلاَّ أَنْ يَلْجَأَ إلى الصَّمْتِ وَالتَّفَكُّرِ وَالصَّلاةِ لِلإلهِ الْواحِدِ الأَحَدِ، فَفي حِينِ رَأى النّاسَ مُنْشَغلينَ بالطَّوافِ حَوْلَ أَصْنامِهِمْ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْها، قَرَّرَ أنْ يَعْتَزِلَهُمْ وَيَلْجَأَ إلى جِبالِ مَكَّةَ وَشِعابِها، حَيْثُ وَجَدَ في غارٍ اسْمُهُ حِراءُ، كُلَّ ما يَرْوي روحَهُ الْعَطْشى إِلى الْعُزْلَةِ وَالانْفِرادِ.

في ذلِكَ الْغارِ راحَ يَقْضي أَوْقاتاً طَويلَةً، وَيُقيمُ كُلَّ شَهْرِ رَمَضانَ مِنْ كُلِّ عامٍ، وَزَوْجَتُهُ خَديجَةُ (ع) تَحْمِلُ إِلَيْهِ الطَّعامَ وَالْماءَ، وَهُوَ يَبْحَثُ عَنِ الصَّوابِ، عَنِ الْحَقِّ وَالْحَقيقَةِ.

فَراحَ يُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ كَعاشِقٍ عَرَفَ اللهَ سُبْحانَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، وَصارَ يَراهُ في كُلِّ هَمْسَةٍ مِنْ هَمَساتِ الْحَياةِ.

هكَذا انْقَضَتْ أَيّامُ حَياةِ مُحَمَّدٍ (ص) حَتّى بَلَغَ الأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ.

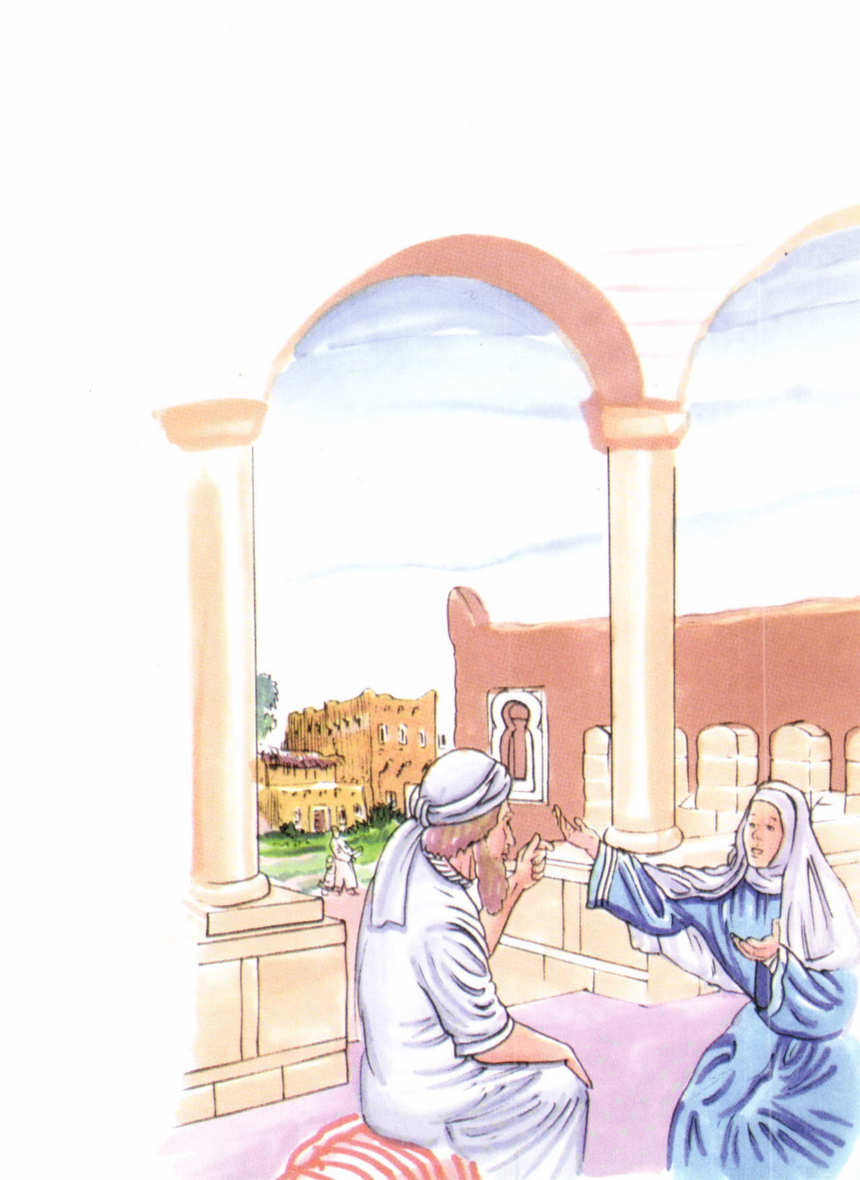


شَوْقٌ دائِمٌ إلى اللهِ سُبْحانَهُ، وَبَحْثٌ لا يَفْتُرُ عَن الْحَقيقَةِ.

وَزَوْجَتُهُ الْوَفِيَّةُ خَديجَةُ إلى جانِبِهِ تُؤَيِّدُهُ بكُلِّ ما أَمْكَنَها، بَعْدَ أَنْ رَأَتْ روحُها ما رَآهُ، وَآمَنَ قَلْبُها بما آمَنَ بِه، وكَذلِكَ ابْنُ عَمِّهِ عَلِيٌّ(ع) الَّذي اسْتَعاضَ عَنِ الْعَبَثِ الطُّفولِيِّ مَعَ أَقْرانِهِ، بِما أَنْشَأَهُ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ (ص) مِنْ عِبادَةٍ وَتَأَمُّلٍ وَهِدايَةٍ.

وَكانَ الْيَوْمُ الَّذي جَلَسَ فيهِ مُحَمَّدٌ (ص)، في غارِ حِراءَ كَعادَتِهِ يَتَأَمَّلُ، وَيَدْعُو اللهَ، إِذْ هَبَطَ عَلَيْهِ جِبْريلُ الأَمينُ، يقولُ لَهُ: «اقْرَأْ». فَأَجابَهُ النَّبِيُّ (ص): «وَما أَقْرَأُ؟». وَعادَ جِبْريلُ يُكَرِّرُ قَوْلَهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ وَالنَّبِيُّ (ص) يَقولُ لَهُ: «مَا أَقْرَأُ؟».

فَقالَ جِبْريلُ (ع): ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فَقَرَأَها النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ (ص)، وَكانَتْ كَأَنَّها كُتِبَتْ في قَلْبِهِ.



حينَذاكَ خَرَجَ الرَّسولُ (ص) مِنْ غارِ حِراءَ وَأَسْرَعَ حَتّى وَصَلَ إِلى وَسَطِ الْجَبَلِ، فَسَمِعَ صَوْتاً مِنَ السَّماءِ يَقولُ: «يا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسولُ اللهِ وَأَنا جِبْريلُ»!

فَرَفَعَ النَّبِيُّ (ص) رَأْسَهُ إِلى السَّماءِ وَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَرَآهُ في صورَةِ رَجُلٍ حافٍّ قَدَمَيْهِ في أُفُقِ السَّماءِ، وَكانَ يَراهُ في كُلِّ مَكانٍ، وَظَلَّ يَراهُ حَتّى عادَ إِلى بَيْتِهِ وَالْتَقى بِزَوْجِهِ خَديجَةَ، قاصّاً عَلَيْها ما حَدَثَ، فَقالَتْ لَهُ: «أَبْشِرْ يا بْنَ الْعَمِّ وَاثْبُتْ، فَوَالَّذي نَفْسُ خَديجَةَ بِيَدِهِ إِنّي أَرْجو أَنْ تَكونَ نَبِيَّ هذِهِ الأُمَّةِ».

بَعْدَ ذَلِكَ انْطَلَقَتْ خَديجَةُ (ع) إِلى ابْنِ عَمِّها وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ الَّذي كانَ نَصْرانِيّاً، وَأَخْبَرَتْهُ بِما حَدَثَ مَعَ مُحَمَّدٍ (ص)، وَكانَ وَرَقَةُ عالِماً بِكَثيرٍ مِمّا جاءَ في التَّوْراةِ وَالإِنْجيلِ، فَقالَ لِخَديجَةَ (ع): «قُدّوسٌ، قُدّوسٌ، وَالَّذي نَفْسُ وَرَقَةَ بِيَدِهِ إِنْ كُنْتِ صَدَقْتِني يا خَديجَةَ لَقَدْ جاءَهُ النّاموسُ الأَكْبَرُ الَّذي كانَ يَأْتي موسى بْنَ عِمْرانَ، وَإِنَّهُ لَنَبِيُّ هذهِ الأُمَّةِ، قولي لَهُ فَلْيَثْبُتْ»!



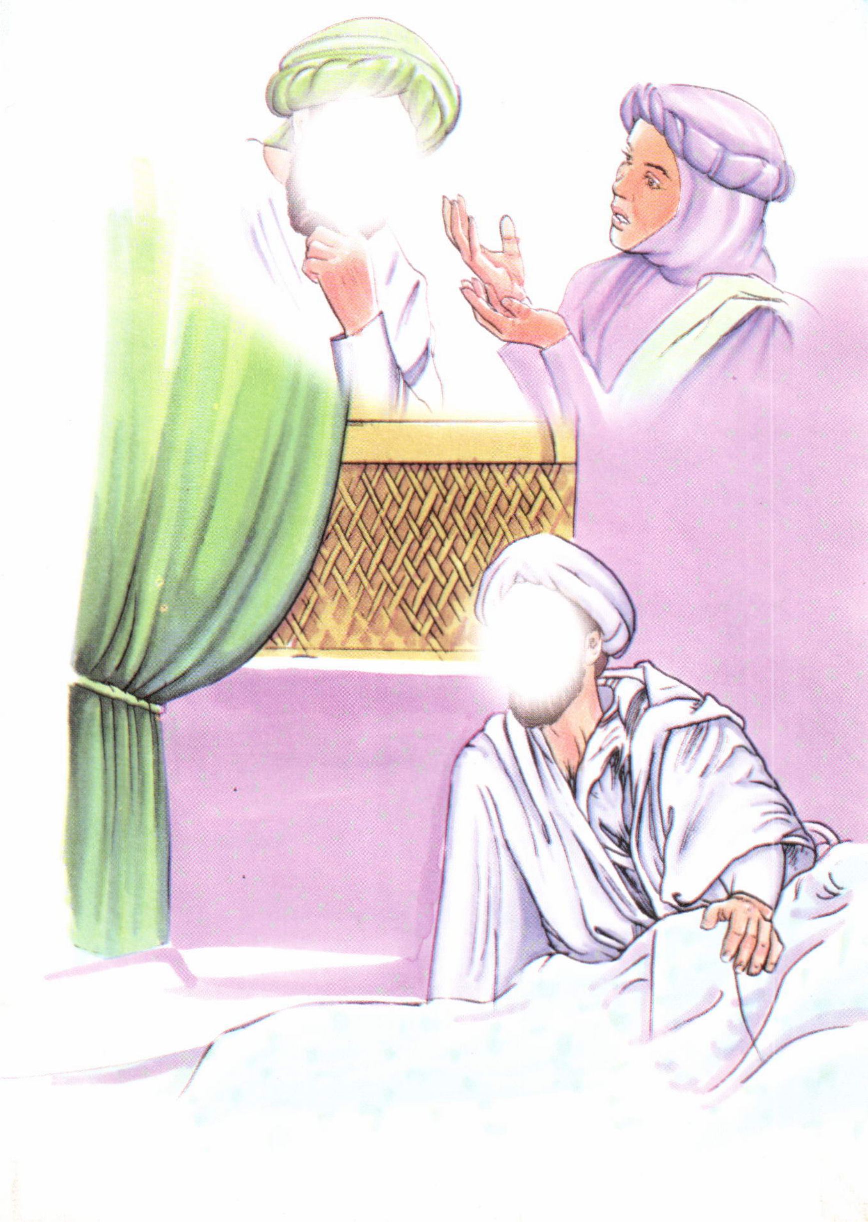


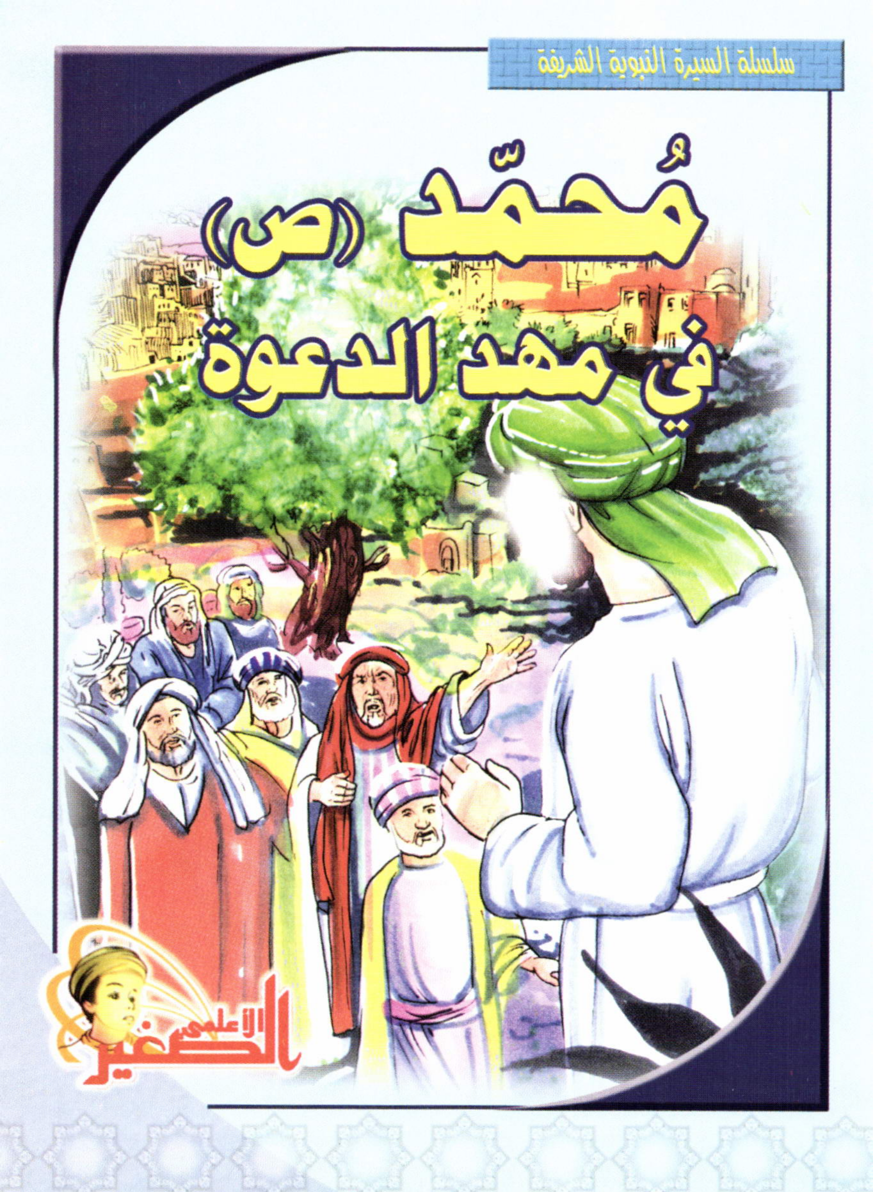
وَعادَتْ خَديجَةُ (ع) تُبَشِّرُ النَّبِيَّ (ص) مِنْ جَديدٍ وَتَقولُ لَهُ: «أَبْشِرْ فَواللهِ لا يُخْزيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَديثَ، وَتُؤَدّي الأَمانَةَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُقْري الضَّيْفَ، وَتُعينُ عَلى نَوائِبِ الْحَقِّ».

أَمّا ابْنُ عَمِّها وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ فَقالَ لَهُ: «لَيْتَني أَكونُ حَيّاً حينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ». فَقالَ لَهُ النَّبِيُّ (ص): «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟». فَقالَ: «نَعَمْ! لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمِثْلِ ما أَتَيْتَ بِهِ إِلاّ عودِيَ وَأُوذِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْني يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً».

بَعْدَ ذلِكَ تُوُفِّيَ وَرَقَةُ، وَلَمْ يَلْحَقْ بِزَمانِ حاجَةِ الإِسْلامِ إِلى نُصْرَةِ نَبِيِّهِ.

وَمَرَّتِ الأَيّامُ، فَانْقَطَعَ الْوَحْيُ عَنِ الرَّسولِ (ص) وَقْتاً، كانَ طَويلاً بِالنِّسْبَةِ إِلى مُحَمَّدٍ (ص) الَّذي شَعَرَ بِحُزْنٍ شَديدٍ مُعْتَقِداً أَنَّ ذلِكَ الانْقِطاعَ دَليلُ سَخَطِ اللهِ




سلسلة السيرة النبوية الشريفة
مُحمّد (ص)
في مهد الدعوة
الأعلمي الصغير



تَرَقْرَقَتِ الدُّموعُ في عَيْنَيْ خديجةَ (ع)، وَقَدْ مَلأَتْ قَلْبَها طُمَأْنينَةٌ ما عَرَفتْ مِثْلَها يَوْماً.

«لَقَدِ انْقَضى يا خَديجةُ عَهْدُ النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ، فَقَدْ أَمَرَني رَبّي أَنْ أُنْذِرَ النّاسَ وَأَدْعُوَهُمْ إِلى اللهِ وَعِبادَتِه».

إِنَّها زَوْجَةُ نَبِيٍّ إِذاً. لَقَدِ اخْتَصَّ اللهُ زَوْجَها بالرِّسالَةِ، وَأَمَرَهُ بدَعْوَةِ النّاسِ إِلى الْعِبادَةِ وَالتَّوْحيدِ وَإِخْراجِهِمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النّورِ، في مُجْتَمَعٍ دَرَجَ فيهِ النّاسُ عَلى عِبادَةِ الأَصْنامِ، وَأَشْرَكوا وَكَفَروا، وَهِيَ تَعْرِفُ مِثْلَما يَعْرِفُ النَّبِيُّ (ص) ما تَحْمِلُهُ الدَّعْوَةُ إِلى الإِسْلامِ مِنْ أَخْطارٍ وَصُعوباتٍ وَما يَعْتَرِضُ طَريقَها مِنْ عَذاباتٍ وَأَهْوالٍ، لكِنَّها رَغْمَ ذلِكَ تَشْعُرُ بِأَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ فَتَحَ لَها أَبْواباً خاصَّةً تُمَكِّنُها مِنْ أَنْ تَعْبُدَهُ وَتَعْمَلَ عَلى نَشْرِ رِسالَةِ الإِسْلامِ بِأَفْضَلِ ما كانَ يُمْكِنُها لَوْ كانَتْ زَوْجَةً لِرَجُلٍ غَيْرِ مُحَمَّدٍ (ص).

شَكَرَتْ خَديجَةُ اللهَ سُبْحانَهُ وَحَمِدَتْهُ، إِذِ اصْطَفاها مِنْ



بَيْنِ نِساءِ الأَرْضِ لِتَكونَ زَوْجَةَ مُحَمَّدٍ (ص) في أَصْعَبِ مَراحِلِ حَياتِهِ، وَأَشَدِّها خَطَراً، وَأَحْفَلِها بالأَحْداثِ وَالصُّعوباتِ وَلِيَمْتَحِنَ إيمانَها أَفْضَلَ امْتِحانٍ. وَقَدْ قَرَّرَتْ مِنْ أَعْماقِ روحِها أَنْ تكونَ إِلى جانِبِ زَوْجِها مُحَمَّدٍ، الرَّجُلِ الَّذي ما عَثَرَتْ لَهُ يَوْماً عَلَى زَلَّةٍ في قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، فَكَيْفَ لا تَفْديهِ بروحِها وَحَياتِها وَمالِها، وَهُوَ الَّذي كَما قالَ عَنْهُ عَمُّهُ أَبو طالِبٍ: «لا يُوازَنُ بِرَجُلٍ إلاّ رَجَحَ عَلَيْهِ، وَلا يُقاسُ بِأَحَدٍ إلاّ كانَ أَعْظَمَ مِنْهُ».

وَمَا أَنْ عَلَّمَهُ جِبْريلُ (ع) الصَّلاةَ وَالْوُضوءَ، وَنَقَلَ إِلَيْهِ أَمْرَ اللهِ تَعالى بِجَعْلِها فَريضَةً، حَتّى هَرَعَتْ خَديجَةُ إِلى تَلْبِيَةِ أَمْرِ اللهِ. وَكانَ ذلِكَ في يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَتَوَضَّأَتْ كَما تَوَضَّأَ، وَصَلَّتْ كَما صَلّى. وَأَعْلَنَتْ لَهُ أَنَّها سَتَكونُ مَعَهُ وَإِلى جانِبِهِ في كُلِّ مَسائِلِ الدّينِ وَأُمُورِ الرِّسالَةِ مَهْما عَظُمَتِ التَّضْحِياتُ!

هذِهِ هِيَ خَديجَةُ (ع)، وَلكِنْ هُناكَ شَخْصٌ آخَرُ مُسْتَعِدٌّ لِيَبْذُلَ روحَهُ مِنْ أَجْلِ رِسالَةِ مُحَمَّدٍ وَنُصْرَةِ دينِهِ. إِنَّهُ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ (ع) الَّذي كانَ يَتْبَعُ مُحَمَّداً (ص) إِلى حَيْثُ ذَهَبَ



وَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ كُلَّ ما شاءَ لَهُ اللهُ سُبْحانَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ، فَيَلْحَقُ بِهِ إِلى غارِ حِراءَ حَيْثُ لا يَلْحَقُ بِهِ أَحَدٌ، وَيَراهُ حَيْثُ لا يَراهُ أَحَدٌ.

فَطَبيعِيٌّ إِذاً أَنْ يَكونَ (ع) ثالِثَ أَوَّلِ ثَلاثَةٍ عَرَفوا الإِسْلامَ، وَقَدْ رَآهُمُ النّاسُ في الْكَعْبَةِ الشَّريفَةِ يُصَلّونَ، فَقالَ عَنْهُمُ الْعَبّاسُ عَمُّ النَّبِيِّ (ص): «ما عَلى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُ اللهَ عَلى هذا الدّينِ سِوى هؤُلاءِ الثَّلاثَةِ، وَمِنْ هؤُلاءِ الثَّلاثَةِ انْطَلَقَتْ مَسيرَةُ الإِسْلامِ إِلى ما وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنِ انْتِشارٍ بَلَغَ بِهِ أَرْجاءَ الأَرْضِ».

النَّبِيُّ (ص) رَسولُ اللهِ (ص)، وَزَوْجَةٌ تُشاطِرُهُ الْهُمومَ وَالأَعْباءَ، وَابْنُ عَمِّهِ الْمُؤازِرُ وَالْمُدافِعُ عَنِ الرِّسالَةِ بِكُلِّ ما آتاهُ اللهُ سُبْحانَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَعَزْمٍ.

لَقَدْ كانَ النَّبِيُّ (ص) يَدْعُو النّاسَ فيما سَبَقَ إِلى الإِسْلامِ سِرّاً، لِمَعْرِفَتِهِ بِما سَتَكونُ عَلَيْهِ رَدَّةُ فِعْلِ زُعَماءِ قُرَيْشٍ



وَجبابرَتهِمْ إنْ أَعْلَنَ الدَّعْوَة، لِذا انْضَمَّ إلى الإِسْلام عَدَدُ ضَئيلٌ جِدّاً مِنَ الَّذينَ آمَنُوا كانوا يَتَسَتَّرونَ في دَعْوَتِهِمْ كَيْ لا يَتعَرَّضوا لِلأَذى وَالتَّعْذيبِ مِنْ قِبَلِ الْمُشْرِكينَ الَّذينَ لَمْ يَكُنْ وارِداً لَدَى واحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَقْبَلَ بِما يَحْمِلُهُ الإِسْلامُ مِنْ قِيَمٍ وَتَعاليمَ وَمَبادِىءَ.

بَعْدَ انْقِضاءِ أَعْوامٍ ثَلاثَةٍ عَلى الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّةِ أَمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ النَّبِيَّ (ص) بِأَنْ يَجْهَرَ بِالدَّعْوَةِ، وَبِأَنْ يَفْتَحَ صَفْحَةً جَديدَةً مِنَ الجِهادِ وَالمَشَقَّةِ وَتَحَمُّلِ الآلامِ مِنْ أَجْلِ تَخْليصِ الْبَشَرِ جَميعاً مِنَ الضَّلالِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِغَيرِ اللهِ تَعالى، وَالإِبْحارِ بِهِمْ نَحْوَ شاطِىءِ النَّجاةِ مِمّا يُريدُهُ لَهُمُ الشَّيْطانُ مِنْ جَحيمٍ وَشَقاءٍ وَعِقابٍ.

جاءَ أَمْرُ اللهِ سُبْحانَهُ بَعْدَ ذلِكَ يَدْعو النَّبِيَّ (ص) إلى دَعْوَةِ عَشيرَتِهِ وَأَقْرِبائِهِ وَقَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَ بَقِيَّةَ النّاسِ، وَلَرُبَّما كانَ ذلِكَ مِنْ أَجْلِ ضَمانِ الْمُسانَدَةِ وَالْمُؤازَرَةِ لِلنَّبِيِّ (ص) مِنْ قَوْمِهِ، وَكَيْ تَكونَ دَعْوَتُهُ أَكْثَرَ إِقْناعاً كَذلِكَ إِنْ آمَنَ بِهِ أَهْلُهُ الَّذينَ هُمْ أَشْرافُ قُرَيْشٍ وَساداتُها وَلَهُمْ مَوْقِعُهُمُ الاجْتِماعِيُّ الْمُمَيَّزُ.



وَجاءَتِ الآيَةُ القُرْآنِيَّةُ الكَريمَةُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ۞ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنينَ۞ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَريءٌ مِمّا تَعْمَلونَ﴾.

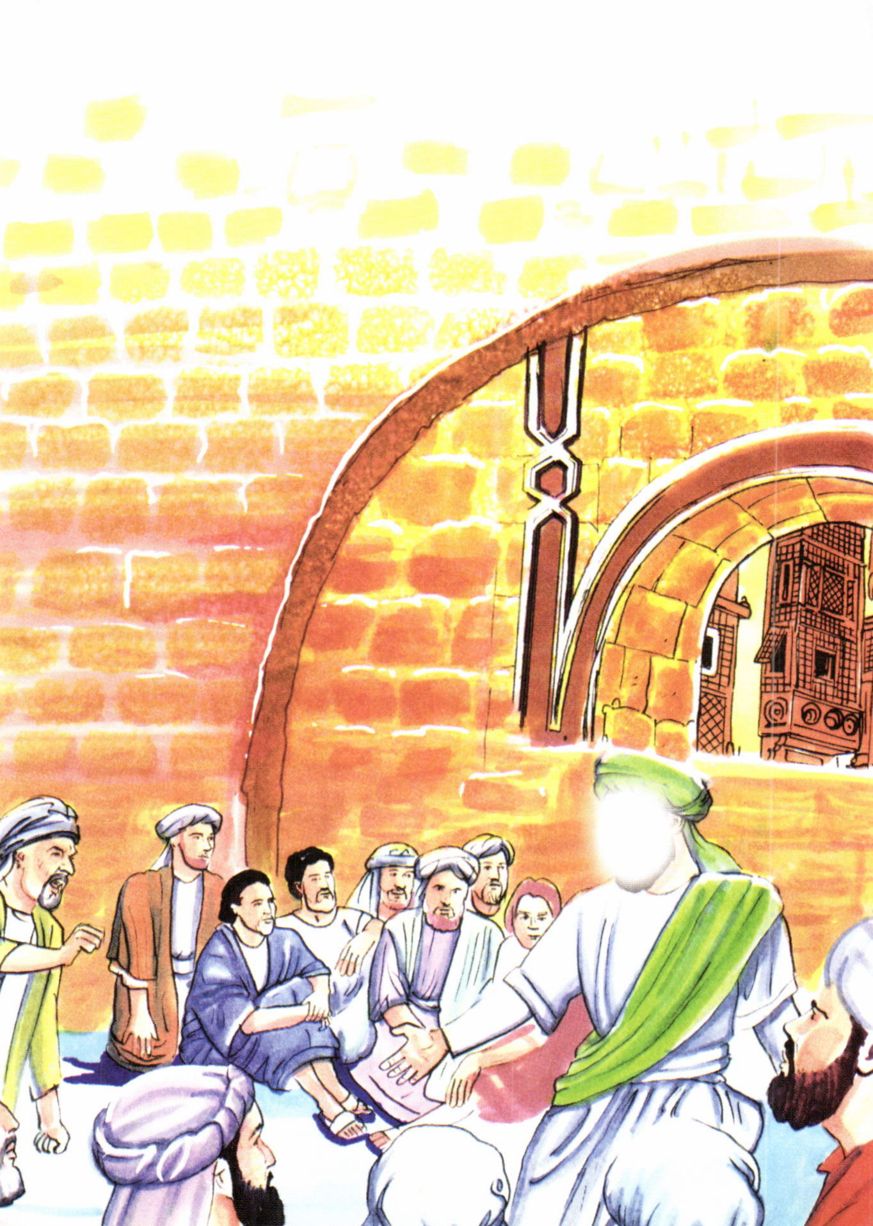
في ذلِكَ الْيَوْمِ صَعِدَ النَّبِيُّ (ص) إِلى جَبَلِ الصَّفا، وَراحَ يُنادي أَقْرِباءَهُ جَميعاً حَتّى هَرَعوا إِلَيْهِ جَميعاً يَسْأَلُونَهُ عَمّا يُريدُ.

فَقالَ النَّبِيُّ (ص): «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هذا الْجَبَلِ تُريدُ أَنْ تُغيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟».

فَقالوا: (بَلى وَاللهِ لأَنّا ما جَرَّبْنا عَلَيْكَ كَذِباً).

فَقالَ (ص): (إِنِّي نَذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديدٍ). فَقالَ لَهُ عَمُّهُ أَبو لَهَبٍ: «تَبّاً لَكَ سائِرَ الْيَوْمِ أَلِهذا جَمَعْتَنا؟».

أَبُو لَهَبٍ هذا أَصَرَّ على أَنْ يَكونَ مُشْرِكاً كافِراً، رَغْمَ كَوْنِهِ عَمَّ النَّبِيِّ (ص) فَبَشَّرَهُ اللهُ سُبْحانَهُ بِالْعِقابِ الَّذي يَنْتَظِرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ لِقاءَ شِرْكِهِ وَكُفْرِهِ، مَعَ ما رَآهُ مِنْ دَلائِلَ عَلى النُّبُوَّةِ



لا يُمْكِنُ لِعَقْلٍ واعٍ أَنْ يُنْكِرَها.

بَعْدَ ذلِكَ دَعا النَّبِيُّ (ص) عَلِيَّ بْنَ أَبي طالِبٍ (ع) وَقالَ لَهُ: «إِصْنَعْ طَعاماً، وَاجْعَلْ عَلَيْهِ رِجْلَ شاةٍ، وَامْلأْ لَنا عُسّاً مِنْ لَبَنٍ، وَاجْمَعْ لي بَني هاشِمٍ وَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ حَتّى أُكَلِّمَهُمْ وَأَدْعُوَهُمْ إِلى الإِسْلامِ وَأُبْلِغَهُمْ ما أُمِرْتُ بِهِ».

فَلَبّى عَلِيٌّ (ع) أَمْرَ النَّبِيِّ (ص) عَلى الْفَوْرِ، وَدَعا أَعْمامَهُ وَأَقارِبَهُ الَّذينَ كانوا حَوالَى أَرْبَعينَ رَجُلاً، فَاجْتَمَعوا وَأَكَلوا حَتّى شَبِعوا.

وَحانَ وَقْتُ تَوْجيهِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ (ص) إِلَيْهِمْ كَيْ يُسْلِموا، وَقَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ الْكَلامَ، قالَ أَبو لَهَبٍ مُوَجِّهاً كَلامَهُ إِلى الْقَوْمِ: (مَا أَشَدَّ ما سَحَرَكُمْ صاحِبُكُم!).

فَانْقَطَعُ الْحَديثُ، وَتَفَرَّقَ الْجَميعُ، وَلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ شَيْئاً، لكِنَّهُ ظَلَّ مُصِرّاً عَلى جَمْعِهِمْ مَرَّةً أُخْرى، فَدَعا عَلِيّاً (ع) مِنْ جَديدٍ، وَقالَ لَهُ: «يا عَلِيُّ، قَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ سَبَقَني هذا الرَّجُلُ إِلى الْكَلامِ، فَاصْنَعْ لَنا في غَدٍ كَما صَنَعْتَ بِالأَمْسِ، وَاجْمَعْهُمْ لَعَلّي أُكَلِّمُهُمْ بِما أَمَرَني اللهُ».



وَعادَ عَلِيٌّ (ع) يُهَيِّئُ لَهُمُ الْوَليمَةَ وَيَدْعوهُمْ. فَأَقْبَلوا وَأَكَلُوا وَشَرِبوا، حينَذاكَ تَوَجَّهَ النَّبِيُّ (ص) إِلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ: «ما أَعْلَمُ إِنْساناً في الْعَرَبِ جاءَ قَوْمَهُ بِمِثْلِ ما جِئْتُكُمْ بِهِ. لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَقَدْ أَمَرَني رَبّي أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيُّكُمْ يُؤازِرُني عَلى هذا الأَمْرِ عَلى أَنْ يَكونَ أَخي وَوَصِيّي وَخَليفَتي فيكُمْ مِنْ بَعْدي؟».

فَلَمْ يَتَكَلَّمْ مِنَ الرِّجالِ أَحَدٌ. وَهُنا قامَ عَلِيٌّ (ع) وَكانَ أَصْغَرَهُمْ سِنّاً، فَوَقَفَ وَقالَ: «أَنا يا نَبِيَّ الله».

فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ (ص) بِالْجُلوسِ. وَكَرَّرَ دَعْوَتَهُ وَسُؤالَهُ. وَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ سِوى عَلِيٍّ (ع).

وَلَمّا وَجَدَ مِنْهُمُ النَّبِيُّ (ص) إِصْراراً على التَّخَلِّي عَنْهُ، وَوَجَدَ إِصْرارَ عَلِيٍّ (ع) عَلى مُؤازَرَتِهِ، أَخَذَ بِرَقَبَةِ عَلِيٍّ (ع) وَقالَ: (إِنَّ هذا أَخي وَوَصِيّي وَخَليفَتي فيكُمْ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطيعوا!).



وَقامَ الرِّجالُ يَضْحَكُونَ وَيقولونَ لأَبي طالِبٍ: «قَدْ أَمَرَكَ مُحَمَّدٌ أَنْ تَسْمَعَ لابْنِكَ وَتُطيعَ».

كانَ ذلِكَ اللِّقاءُ الَّذي أَعْلَنَ فيهِ النَّبيُّ مُحَمَّدٌ (ص) عَنْ رِسالَتِهِ أَمامَ مَلأٍ مِنْ قَوْمِهِ وَعَشيرَتِهِ مَدارَ حَديثِ النّاسِ لِفَتْرَةٍ طَويلَةٍ، إِذْ راحوا يَتَناقَلونَ ما دارَ في الاجْتِماعِ، فَكانَتْ رُدودُ الْفِعْلِ مُخْتَلِفَةً اخْتِلافَ ما في قُلوبِ الْحاضِرينَ مِنْ قَناعاتٍ.

إِنَّ ما فَعَلَهُ أَبو لَهَبٍ الْمُشْرِكُ بَعْدَ ذلِكَ اللِّقاءِ لَمُخْتَلِفٌ عَمّا فَعَلَهُ أَبو طالِبٍ الَّذي فُطِرَ قَلْبُهُ عَلى الإيمانِ.

فَقَدْ خَرَجَ أَبو لَهَبٍ إِلى أَهْلِ مَكَّةَ وَسِواهُمْ يُحَرِّضُهُمْ عَلى مُحَمَّدٍ (ص) مُسْتَغِلاً ما حَمَلَتْهُ دَعْوَةُ النَّبِيِّ (ص) لِتَحْريرِ الْفُقَراءِ وَالضُّعَفاءِ مِنَ الْقَهْرِ وَالاسْتِغْلالِ فَذلِكَ الْمَوْقِفُ لا شَكَّ سَيَرْفُضُهُ الْكَثيرونَ مِنْ أَثْرياءِ مَكَّةَ الَّذينَ دَأَبوا عَلى قَهْرِ



الْمَساكينِ وَتَسْخيرِهِمْ لِمَصالِحِهِمْ، فَكانَتْ خُطَّةُ أَبي لَهَبٍ تَقْضي بِتَحْريضِ هذِهِ الْفِئَةِ مِنَ النّاسِ، خاصَّةً وَأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ الْمالَ وَالسُّلْطَةَ وَالْقُوَّةَ الَّتي قَدْ تُمَكِّنُهُ مِنْ مُحارَبَةِ الدّينِ الْجَديدِ الَّذي ما زالَ في ساعاتِ بُزوغِ شَمْسِهِ الأولى.

أَمَّا الْمَساكينُ الضُّعَفاءُ، فَرَأَوْا طاقَةَ أَمَلٍ كَبيرَةً تَحْمِلُ إِلى أَرْواحِهِمُ الْمُعَذَّبَةِ تَباشيرَ الْخَلاصِ. هؤُلاءِ الْتَفّوا حَوْلَ مُحَمَّدٍ (ص) وَوَضَعوا أَنْفُسَهُمْ في خِدْمَةِ الرِّسالَةِ، وَساهَموا في نَشْرِ مَبادِىءِ الإِسْلامِ، وَخِدْمَةِ الدّينِ. مُقابِلَ مَوْقِفِ خَديجَةَ (ع) الْمُؤَيِّدِ لِرِسالَةِ الإِسْلامِ وَاسْتِعْدادِها لإِنْفاقِ كُلِّ ثَرْوَتِها في سَبيلِ اللهِ. وَكانَتِ امْرَأَةٌ أُخْرى تَقودُ الْحَرَكَةَ الرّافِضَةَ لِلدّينِ وَتَعْمَلُ بِكُلِّ حِقْدٍ وَأَذىً عَلى الإِساءَةِ إِلى مُحَمَّدٍ (ص) وَإِلى دينِهِ وَأَتْباعِ دينِهِ. تِلْكَ الْمَرْأَةُ كانَتْ أُمَّ جَميلٍ زَوْجَةَ أَبي لَهَبٍ عَمِّ النَّبِيِّ (ص).

هذِهِ الْمَرْأَةُ راحَتْ تُحَرِّضُ الْكَثيرينَ مِمَّنْ مالوا إِلى دينِ



الإِسْلامِ عَلى الابْتِعادِ عَنِ الطَّريقِ الَّتي سَتُنْجيهِمْ وَتُخَلِّصُهُمْ، مُسْتَخْدِمَةً كُلَّ أَساليبِ التَّرْهيبِ وَالتَّرْغيبِ.

وَرَغْمَ كُلِّ ما جَنَّدَتْهُ أُمُّ جَميلٍ مِنْ أَجْلِ الإِساءَةِ إِلى الإِسْلامِ، ازْدادَ الْمُؤْمِنونَ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، حَتّى تَجاوَزَ عَدَدُهُمُ الأَرْبَعينَ رَجُلاً.

في ذَلِكَ الْوَقْتِ كانَ هُناكَ مَنْ يَسْعى إِلى الإِسْلامِ بِنَفْسِهِ باحِثاً عَنْ نَبِيِّ اللهِ سُبْحانَهُ، بَعْدَ أَنِ اهْتَدى، وَفَكَّرَ بِعَقْلِهِ، وَعَرَفَ اللهَ فَوَحَّدَهُ، وَكَفَرَ بِالأَصْنامِ. مِنْ بَيْنِ أُولئِكَ كانَ أَبو ذَرٍّ الْغِفارِيُّ الَّذي كانَ يَعْبُدُ الأَصْنامَ وَالتَّماثيلَ، وَلَدَيْهِ مِنْها صَنَمٌ اسْمُهُ مَناةٌ.

جاءَ أَبو ذَرٍّ يَوْماً إِلى صَنَمِهِ ذاكَ، فَقَدَّمَ لَهُ بَعْضاً مِنَ اللَّبَنِ، وَوَقَفَ يَتَأَمَّلُهُ، وَبَيْنَما هُوَ في تَأَمُّلِهِ ذاكَ أَقْبَلَ ثَعْلَبٌ وَهَجَمَ عَلى وِعاءِ اللَّبَنِ فَشَرِبَ كُلَّ ما فيهِ، لَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبُ بَلْ إِنَّ الثَّعْلَبَ تَجَرَّأَ عَلى أَنْ يَبولَ عَلى صَنَمِ أَبي ذَرٍّ ذاكَ!



هذهِ الْحادِثَةُ كانَتْ سَبَباً لإيمانِ أَبي ذَرٍّ الَّذي أَوْصَلَهُ التَّفْكيرُ فِي الأَمْرِ إِلى أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحيلِ أَنْ يَكونَ الإِلهُ عاجِزاً كُلَّ الْعَجْزِ عَنْ رَدِّ مَنْ يَقومُ بِأَفْعالٍ كَأَفْعالِ الثَّعْلَبِ ذاكَ.

وَلِذا وَجَّهَ أَبو ذَرٍّ الْغِفارِيُّ وَجْهَهُ للهِ الْواحِدِ وَراحَ يُصَلّي داعِياً مِنْ أَعْماقِ روحِهِ أَنْ يَمُنَّ اللهُ سُبْحانَهُ عَلَيْهِ بِلِقاءِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ (ص).

وَاسْتَجابَ اللهُ سُبْحانَهُ لِدُعائِهِ، فَأَتى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةَ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ عَنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (ص)، وَالْتَقاهُ وَشَهِدَ بِأَنْ لا إِلَهَ إِلاّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. لَيْسَ هذا فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَتَحَدّى أَهْلَ قُرَيْش بِأَعْلَى صَوْتِهِ، مُشْهِراً إِسْلامَهُ، وَلَمْ يُخَلِّصْهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ إِلاَّ الْعَبّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، ثُمَّ انْطَلَقَ أَبو ذَرٍّ بَعْدَ ذلِكَ يَدْعُو إِلى الإِسْلامِ حَتّى آمَنَ أَهْلُ غِفارٍ وَأَسْلَموا على يَدَيْهِ. وَقَدْ أُعْجِبَ النَّبِيُّ (ص) بِأَبي ذَرٍّ وَإِيمانِهِ وَصِدْقِهِ حَتّى شَهِدَ لَهُ شَهادَةً مَأْثورَةً وَقالَ: (ما أَظَلَّتِ الْخَضْراءُ، وَلا أَقَلَّتِ الْغَبْراءُ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبي ذَرٍّ!).



بَعْدَ ذلِكَ انْضَمَّ إلى الإسْلامِ الْكَثيرونَ. إلاّ أَنَّ التّاريخَ تَوَقّفَ عِنْدَ بَعْضٍ مِنَ الْمُسْلِمينَ الأَوائلِ الَّذينَ تَحَمَّلوا عَذاباً كَبيراً، وَأَذىً كَثيراً في سَبيلِ الإِسْلامِ، فَلَمْ يَحيدوا عَنِ الدّينِ مُضَحّينَ بِأَنْفُسِهِمْ وَبِكلِّ ما يَمْلِكونَهُ في سَبيلِ اللهِ.

مِنْ بَيْنِ أولئِكَ عَمّارُ بْنُ ياسِرٍ (رض) الَّذي صَبَرَ عَلى أَذى الْمُشْرِكينَ الَّذي طالَ عائِلَتَهُ بِأَكْمَلِها.

إذْ دَخَلَ عَمّارٌ وَوالِداهُ ياسِرٌ وَسُمَيَّةُ على رَسولِ اللهِ (ص)، فَعَرَضَ عَلَيْهِم الإِسْلامَ، فَدَخَلُوا فيهِ، وَأَخْفوا أَمْرَهُمْ فَتْرَةً مِنَ الزَّمانِ، إلى أَنْ عَرَفَ الْمُشْرِكونَ بِأَمْرِ إِسْلامِهِمْ وَعِبادَتِهِمْ، فَعَذَّبوهُمْ بِشَتّى أَنْواعِ الْعَذابِ، حَتّى بَشَّرَهُمُ النَّبيُّ (ص) بِالْجَنَّةِ. وَكانَتْ سُمَيَّةُ أُمُّ عَمّارٍ أَوَّلَ شَهيدَةٍ مِنْ شَهيداتِ الإِسْلامِ قَتَلَها أَبو جَهْلٍ، ثُمَّ قَتَلَ زَوْجَها ياسِراً، أَمَّا عَمّارٌ فَأَطْلَقوا سَراحَهُ بَعْدَ أَنْ عَذَّبوهُ طَويلاً، وَسَلِمَ مِنَ الْمَوْتِ في





ذلِكَ الْوَقْتِ لِيُصْبِحَ فيما بَعْدُ مِنْ أَفْضَلِ الْمُجاهِدينَ الَّذينَ نَصَروا الإِسْلامَ وَالْمُسْلِمينَ حَتّى شَهادَتِهِ.

وَمِنْ أولئِكَ الْمُؤْمِنينَ أَيضاً كانَ بلالُ بْنُ رَباحِ الْجُمَحِيُّ مُؤَذِّنُ رَسولِ اللهِ (ص) الَّذي تَحَمَّلَ عَذاباً لا يَقْوى على تَحَمُّلِهِ أَحَدٌ، عَلى أَيْدي الْمُشْرِكينَ وَهُوَ لا يَسْتَغيثُ إِلاّ باللهِ سُبْحانَهُ.

أَمّا ما لَقِيَهُ سِواهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنينَ مِنْ عَذابِ الْمُشْرِكينَ، فَلَهُ أَلْوانٌ وَأَشْكالٌ لا تُحْصى،إِذْ كانوا يَطْرَحونَهُمْ عُراةً عَلى الرِّمالِ الْحارِقَةِ في حَرِّ الْهاجِرَةِ، وَيَنْهالونَ عَلَيْهِمْ بِالسِّياطِ حَتّى يُشْرِفوا عَلى الْهَلاكِ، أَوْ يَسُبّوا مُحَمَّداً وَدينَهُ، فَكانوا لا يَفْعَلونَ ذلِكَ رَغْمَ أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّداً (ص) أَجازَ لَهُمْ ذلِكَ كَيْ يَتَجَنَّبوا الْعَذابَ.

وَلَمّا وَجَدَ مُشْرِكو قُرَيْش أَنْ لا سَبيلَ لَهُمْ عَلى النَّبِيِّ (ص) وَأَنَّهُ لَنْ يوقِفَ دَعْوَتَهُ، قَرَّروا اللّجوءَ إِلى عَمِّهِ أَبي طالِبٍ، الَّذي كانَ لَهُ في قَلْبِ مُحَمَّدٍ (ص) وِدٌّ كَبيرٌ وَاحْتِرامٌ وَإِجْلالٌ عَظيمانِ. لكِنَّ أَبا طالِبٍ لَمْ يَقِف في وَجْهِ ابْنِ أَخيهِ النَّبِيِّ (ص)

